قواعد الاشتباك الجديدة والسيناريوهات بعد مقتل قاسم سليماني

د. خطار أبودياب
أستاذ العلوم السياسية، المركز الدولي للجيوبوليتيك - باريس

تحول العراق في الفترة الأخيرة بفضل قدر الجغرافيا وتطور الأحداث منذ 2003، إلى الساحة الأساسية في اختبار القوة بين الولايات المتحدة الأميركية وإيران. ويمكننا القول بأن عملية "البرق الأزرق" التي استهدفت قاسم سليماني (قائد قوة القدس في الحرس الثوري الإيراني) وأبومهدي المهندس (رئيس هيئة الحشد الشعبي في العراق) وصحبهما، تعتبر تصعيدا لا سابق له في المسلسل الطويل من التجاذب والتوتر بين واشنطن وطهران.

ومما لا شك فيه أن مصرع سليماني رمز المشروع الإمبراطوري الإيراني ومنفذه، يضع الشرق الأوسط والخليج في عين العاصفة أكثر من أيّ وقت مضى. وهذا التجاوز للخطوط الحمراء سياسياً وأمنياً وعسكرياً وصل إلى حده الأقصى ويعقّد السيناريوهات المرتسمة، ويزيد من الاحتمال بأن يكون العام 2020 عام إيران وعام مرحلة جديدة ستسمح بتوضيح مآل مجمل المشهد الإقليمي.

قبل الوصول إلى "الضربة القاضية" في بدايات 2020، كان حصاد العام الماضي المتباين عامل التباس ربما جعل حسابات إيران خاطئة في تقييم ردة فعل ترامب عند بعض المفاصل. وازداد قلق الدوائر العليا في إيران نتيجة تزامن الاحتجاجات في داخلها مع الانتفاضات التي هزّت وتهزّ دائرة نفوذها في العراق ولبنان. في مواجهة استراتيجية "الضغط الأقصى" التي مارستها الإدارة الأميركية على طهران (منذ مايو 2018) لإرغامها على العودة إلى طاولة المفاوضات والبحث في اتفاق نووي جديد يشمل برنامجها الصاروخي وتطلعاتها الإقليمية، انتقلت إيران إلى سياسة أكثر جرأة إزاء حلفاء واشنطن في المنطقة، شملت هجمات نسبت إليها أو إلى وكلائها على ناقلات نفط.

وقد نجحت العقوبات الأميركية في إضعاف الاقتصاد الإيراني وتقليص دعم طهران لوكلائها، ولكن في غياب استراتيجية متكاملة للمواجهة، لجأت إيران إلى سياسة حافة الهاوية فانتقلت من هجوم إلى آخر أقوى، وكأنّ لا شيء أكثر تخسره. وكاد إسقاط "الحرس الثوري" طائرة تجسس أميركية مسيّرة لدى اختراقها المجال الجوي الإيراني، أن ينقل المواجهة إلى مرحلة جديدة لولا تراجع الرئيس الأميركي دونالد ترامب في اللحظة الأخيرة. لكن الهجوم على منشأتي "أرامكو" كان الأخطر إطلاقاً وشكّل الصدمة الكبرى في قطاع إنتاج النفط في 63 سنة.

ومع أن أدلة أظهرت تورطا إيرانيا مباشرا في الهجوم، لم تتخذ واشنطن أيّ إجراء عسكري لوقف طهران عند حدها. وهكذا فإنه مع تراجع ترامب عن توجيه ضربة عسكرية في يونيو 2018 إلى طهران رداً على إسقاطها الطائرة المسيرة، تأكدت طهران من أن سيد البيت الأبيض لن يذهب أبداً إلى الحرب، وأن تهديداته التي يطلقها عبر "تويتر" ليست إلا استعراضات ومن هنا كانت ضربة أرامكو وتباهي إيران بربح المواجهة وعدم ليّ ذراعها.

بيد أن تطور الأحداث من العراق إلى لبنان أعاد خلط الأوراق. وأدى خوف إيران من خسارة نفوذها في محورها الأميركي بمصير غريمته هيلاري كلينتون بعد مقتل السفير الأميركي في بنغازي، وأعاد للذاكرة قبل أربعين سنة احتجاز الرهائن في السفارة الأميركية في طهران وكأن الزمن لم يغير أساليب النظام الإيراني. إزاء هذا التحدي لمجمل الوجود العسكري الأميركي في العراق وكل الإقليم، كان القرار بتصفية سليماني والمهندس وأترابهما من ضباط وقيادات الحرس والحشد وحزب الله.

إن اتخاذ القرار باغتيال "الرجل القوي" لإيران وواضع استراتيجية التمدد الإيراني في الإقليم وحول العالم، هو أول قرار من هذا النوع تتخذه واشنطن منذ أربعة عقود من الزمن، ويشكل كسبا يضع حداً لمسلسل "هوليوودي" ظنت طهران أنها ستلعبه طويلاً. خلافاً لكل الإدارات السابقة، تجرأ ترامب والبنتاغون على تغيير قواعد الاشتباك ونقل الصراع إلى مصاف جديد مع الخسائر التي لحقت بقيادات لإيران وأذرعها. والأدهى أيضا بالنسبة إلى إيران الضربة التي تلقتها هيبتها ومن الصعب ترميمها.

وهذه النقلة الأميركية مرتبطة بتصاعد الاختراق الروسي في المنطقة والصعود الصيني، والملاحظ أن ردود الفعل الروسية والصينية حيال الضربات الأميركية التي سبقت عملية "البرق الأزرق" تشي برغبة في عدم التصعيد بين ثالوث الكبار وعلى الأرجح وصولاً إلى تقاسم النفوذ. ومن الأسباب الأخرى لزيادة الاندفاع الأميركي، القلق الذي برز في واشنطن إثر الكلام عن إمكانية حوار بين طهران وبعض العواصم في الخليج العربي، وفقدان صدقية واشنطن حول الالتزام بأمن الخليج وأمن الطاقة. ومن هنا أتى التصعيد الأميركي ليضرب عدة أهداف في وقت واحد.

إزاء خسارة لا تعوض بالنسبة إلى طهران، خاصة أن استبدال قاسم سليماني ليس بالأمر اليسير لأنه لم يكن صاحب الخطط العسكرية لإنقاذ النظام في دمشق فحسب، بل كان كذلك صانع السياسة الإيرانية في العراق ولبنان واليمن ومحرك الخلايا النائمة. ولذلك سيصعب على "الجمهورية الإسلامية" تحمّل خسارتها ولا بدّ لها من الردّ والأرجح ألا يكون شاملاً لأنها لا تتحمل مجابهة شاملة في ظل انهيار اقتصادي واحتجاج داخلي. والأرجح أن يكون الردّ محصوراً في العراق حيث ليس من المستبعد إعادة انتشار وانسحاب أميركي على المدى المتوسط. لكن تدحرج التصعيد يمكن أن يجعل الوضع خارجا عن السيطرة وأن يتصور البعض في طهران أن خسارة ترامب الانتخابات تمرّ عبر جرّه إلى مواجهة كبرى من دون احتساب مخاطر الردّ الأميركي الصاعق.

لكن هذا السيناريو في الردّ المحدود يرتبط كذلك بعوامل أخرى وبالعامل الإسرائيلي تحديداً، لأن قرار عدم السماح بالتمركز الإيراني في سوريا والعراق يمكن أن يفجر الموقف وصولا لاستهداف البرنامج النووي الإيراني. ولذا ستكون الأشهر القادمة حافلة بالتصعيد والمتغيرات. وتبدو كل المنطقة على صفيح ساخن حتى إشعار آخر.

موت أسطورة قتل إيرانية

د. ماجد السامرائي
كاتب عراقي

عملية نوعية كبيرة تلك التي قتلت الجنرال قاسم سليماني في لحظة خروجه من باب الشحن الجوي للتمويه في مطار بغداد، قبل أن يدخل العاصمة العراقية ويكون لاستهدافه داخلها ضحايا من المدنيين. هذه العملية كما وصفها فيليب سميث الخبير الأميركي في الجماعات المسلحة الشيعية بأنها "أكبر عملية تصفية على الإطلاق تنفّذها الولايات المتحدة منذ تلك التي قتلت فيها أبوبكر البغدادي أو أسامة بن لادن"، زعيمي تنظيمي داعش والقاعدة.

لاقت عملية قتل سليماني الموصوف أميركيا بالإرهابي ومعه أبومهدي المهندس ارتياحا شعبيا عراقياً واسعا خصوصاً بين صفوف عوائل شهداء انتفاضة أكتوبر 2019، واعتبروها انتقاما لدماء أولئك الشهداء حيث يعتقدون بأن مسلسل القتل والاختطاف كان ينفذ بناء على برنامج أشرف عليه سليماني وأذرعه لتعطيل الانتفاضة عن تحقيق أهدافها في التغيير السياسي الذي سيؤدي إلى تخفيف أو إزاحة الاحتلال الإيراني في العراق.

ردود الفعل العراقية الرسمية والحزبية الموالية لطهران لا تتعدى الإدانة أو الدعوة لإخراجهم من العراق صدرت بداية من برلمان مشلول أعلن رئيسه بأن الاستهداف الأميركي انتهاك للمواثيق الدولية.

كما من المتوقع أن يحصل تورط بهجمات على المصالح الأميركية في العراق تقوده ميليشيات تابعة لإيران أطلقت بياناتها التهديدية، وسط انقسام في صفوفها، فبعضها قلق على المكاسب والغنائم التي حصل عليه خصوصاً بعد نهاية حرب داعش 2017، أما الفصائل الموالية عقائدياً لخامنئي فلا تجد أمامها سوى تنفيذ ما يطلب منها من قبل قائد فيلق القدس الجديد إسماعيل قاآني الذي لن يكرر شخصية ومكانة سليماني المقتول.

دعوة إخراج القوات الأميركية من العراق التي تشكل المطلب الرئيس للميليشيات بإصدار قرار في البرلمان لن يكون سهلا وليس بيد البرلمان حيث هناك ضوابط دولية للاتفاقية الأميركية العراقية التي هي لصالح العراق الذي يتعرض لمخاطر استراتيجية أمنية خطيرة.

ففي رد فعله دعا الزعيم الشيعي مقتدى الصدر إلى إحياء "جيش المهدي" بأدواته العسكرية بعد أن حلّه منذ سنوات قليلة قبيل حرب داعش 2017، تبعا لما وصفها بمسؤولية الدفاع عن العراق دون أن يحدد ضد من.

فيما حذر رئيس الحكومة المستقيلة عادل عبدالمهدي من حرب مدمرة في العراق والمنطقة والعالم، وهو الذي لم يتخذ خلال ولايته ما يبعد العراق عن شبح تلك الحرب عن طريق جعل البلد مستقلاً بإرادته. أما رئيس الجمهورية (برهم صالح) فقد توافق مع موقف المرجعية الشيعية الداعية إلى ضبط النفس.

في المقابل فإن القوى السياسية التي تصف نفسها بالمعارضة لم تتجاوز مواقف التنديد والمطالبة بضبط النفس، غير أن إياد علاوي خرج بموقف وصف بأنه خارج الصفيح الملتهب حيث دعا إلى عقد مؤتمر إقليمي يقود المنطقة إلى السلام.

إزاء هذه المواقف، كان المنتفضون الشباب في ساحة الاعتصام ببغداد أكثر وعياً وانتباهاً لمصالح العراق العليا من السياسيين في دعوتهم إلى "تفويت الفرصة على أصحاب المكامن والمنافقين" والتصرف بحكمة، وإلى التمسك بأهدافهم السياسية وعدم إضاعتها في لجة الفوضى التي يراد جرّ العراق إليها.

فقبل تصفية سليماني ساد شعور واهم لدى حكام طهران بأن ترامب في أضعف مراحل حكمه وهو غير قادر على الرد حتى وإن تم تنفيذ عملية اقتحام ودخول للسفارة الأميركية ببغداد وقتل أو احتجاز رهائن أميركان على غرار عملية طهران عام 1979، ما سيؤدي إلى ذات التداعيات التي حصلت بهزيمة جيمي كارتر وفوز دونالد ريغان بالرئاسة أو حادثة مقتل السفير الأميركي في ليبيا عام 2012 التي أطاحت بالمرشحة الديمقراطية هيلاري كلنتون، لكن ردّ الرئيس ترامب من خلال هذه العملية العسكرية باستهداف الرأس الإيراني سليماني في المنطقة أعاد ترتيب قواعد اللعبة لصالحه داخل الولايات المتحدة وفي منطقة الشرق الأوسط، وهو يدعو طهران بعد الضربة إلى خيار السلام من موقعه كمنتصر.

> المنتفضون في ساحة الاعتصام ببغداد أكثر وعياً بمصالح العراق من السياسيين في دعوتهم إلى «تفويت الفرصة على أصحاب المكامن والمنافقين» والتصرف بحكمة، وإلى التمسك بأهدافهم السياسية وعدم إضاعتها في لجة الفوضى التي يراد جرّ العراق إليها

في بنيان المنظمات الميليشياوية وقواعدها يكون للقائد دور مفصلي في فعالياتها، والجنرال سليماني أصبح دوره، خصوصاً، في العراق خارجاً عن مألوف القادة العسكريين خارج بلدانهم حتى في أوقات الحروب التي دائماً ما تكون ميدانية، وقد أناط به زعيمه خامنئي مهمة إدارة ورسم السياسات الإيرانية في العراق لدرجة أن سفراء طهران في العراق ولبنان وسوريا تابعون للحرس الثوري لا الخارجية الإيرانية.

وتحول بفضل ما نسجه الإعلام التابع للميليشيات في العراق إلى أسطورة طائفية، وإلى فاتح يقتل الأبرياء ويتجول متشفياً فيهم بالمحافظات العراقية المنكوبة، متجاوزاً دور القائد الميداني والسياسي إلى رأس غير اعتيادي يدير العمليات المالية الكبرى غير المشروعة من تايلاند وصولا إلى نيجيريا. لذلك تشكل نهايته الدرامية صدمة كبيرة لرأس النظام حتى وإن كابر بتوعده وجميع أنصاره في إيران والعراق بالانتقام.

وفي تفاعل مع الحدث دعت بعض الأصوات العراقية النزيهة والبعيدة عن المؤثرات الخارجية إلى اعتبار قصة موت الجنرال الإيراني في العراق فرصة لإنهاء جميع محاولات جعل العراق ساحة للنزاع الإيراني الأميركي الذي يستهدف ترامب من وراء تفصيلاته اللوجستية والسياسية إرغام طهران على الإذعان للمفاوضات.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
حذام خريف
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk